جمالية الفاصلة في الخطاب القرآني

The aesthetic separation in the qurqnic discourse

اسم الباحث: نعيمة عـزي، أستاذ مساعد صنف" أ"

جامعة : عبد الرحمن ميرة – بجاية-

البريد الاكتروني azinaimadz2006@gmail.com

رقم الهاتف: 07.77.12.58.81

تاريخ الاستلام:2018/06/07 تاريخ القبول:2019/06/05

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على جماليات الفاصلة في الخطاب القرآني، ذلك أنّ هذا الأخير ينفرد بخصائص فنّية أكسبته صفة التفرد والتميز في مكونه النسيجي، فهو خطاب ذو ميزة جمالية ولعل من أبرز مظاهره الجمالية ظاهرة الفاصلة القرآنية، والتي تعدّ من الظواهر الأسلوبية البارزة، والتي أضفت عليه لمسة جمالية مميزة، ولقد آثرنا في الأول إلقاء نظرة على مفهوم الخطاب القرآني، ثم تناولنا مفهوم الجمال والجمالية، وبعدها تطرقنا إلى الحديث عن الفاصلة القرآنية، فوقفنا على مفهومها، أهميتها، وأنواعها، ثم ختمنا هذه الدراسة بإبراز الدور الجمالي للفاصلة في الخطاب القرآني.

الكلمات المفاتيح: خطاب قرآني؛ جمالية؛ ايقاعية؛ فاصلة قرآنية.

The aesthetic separation in the qurqnic discourse

المنارة للاستشارات

Abstract :

The aim of this study is to show the beauty of coranic's dissertation

that `s the latter is characterized by artistic`s aspects which mode it special in its own. The beauty of its style is one of the most apparent component which determine the style of writing in which is added on artistic touch which make the text more attractive,

In the first place we have trayed to give an exact definition for the words of the coran, then we have analyzed the text to understand well the structure of the coran, and explainedits different aspects. To conclude, we have cited the importance of this art coranic, and its role in the beauty of this text.

quranic ؛ rhythmic؛ quranic discourse؛ the aesthetic:Key wards interlude.

مقدمة:

إنّ الخطاب القرآني هو خطاب رباني، صادر من الله عزّ وجل، خالق كلّ شيء، وهو القائل تبارك وتعالى ذو الجلال والإكرام : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم، إنّ أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين﴾ [الزمر 1-2]، لذا تنزّه أن يشبه أيّ خطاب بشري شعرا كان أو نثرا ، فكان معجزا لا يجاريه أرباب الفصاحة والبيان من فحول الشعراء، والخطباء العرب، وظهر هذا التحدي في القرآن في مواضع كثيرة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾ [الإسراء آية 88]، وقوله تعالى: ﴿ إن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله﴾ [البقرة 23]، وفي موضع آخر : ﴿ قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات﴾ [هود 13].

المنارة للاستشارات

وتجدر الاشارة إلى أنّ الباحثين حاولوا تفسير سِرَّ تَمَيُّزِ الخطاب القرآني عن سائر النصوص الأدبية، ومن بينهم على سبيل المثال نجد **الإمام عبد القاهر الجرجاني** الذي قال: « وذلك أنّا نعلم أنّ الجهة التي منها قامت الحجة بالقرآن، وظهرت وبانت وبهرت، هي أن كان على حد من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر، ومنتهيا إلى غاية لا يطمح إليها بالفكر، وكان مُحَالا أن يَعْرِفَ كونه كذلك إلا من عَرَفَ الشعر الذي هو ديوان العرب، وعنوان الأدب، والذي لا يشك أنه كان ميدان القوم إذا تجاروا في الفصاحة والبيان، وتنازعوا فيها قصب الرهان، ثم بحث عن العلل التي بها كان التباين في الفضل، وزاد بعض الشعر على بعض، كان الصاد عن ذلك صادا عن أن يعرف حجة الله تعالى»[1]، فمن الطبيعي إذًا أن يكون الخطاب القرآني معجز، فإن كان الله قال عن نفسه: ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ [الشورى 11] فمن المؤكد -ودون نقاش- أن يكون خطابه سبحانه وتعالى خطاب متفرد، ومتميز، وليس كباقي الخطابات البشرية، إنّه خطاب مُعْجِز بما تحويه الكلمة من معنى، ولا أحد ينكر بأنّ الخطاب القرآني جاء على نسق الكلام العربي، مما يعني أنّه يوجه بحدود هذا الكلام، مع الأخذ في الاعتبار تميّزه بالأسلوب المعجز الذي يجعله نمطا خاصا مفارقا لكل الأنماط.

إنّ الخطاب القرآني يُشَكِّل مستوًى كلاميا ثنائيا أكثر إدهاشا، وأكثر إثارة[2]؛ فقد احتوى هذا الخطاب على كل مظاهر الجمال، وأسرار التعبير ما لا يدانيه أي نص إبداعي أو غير إبداعي، وجماليته جمعت بين شكله ومحتواه، أي بين لفظه ومضمونه، وهذا الوضع جاء في غاية المُلاءَمَة والتوافق[3]، فالقرآن كلام الله المعجز للخلق في أسلوبه، ونظمه، وإنّ أهم سمة من سمات تميز الخطاب القرآني هو أن يكون وسيلة لفهم الكون، وهذا سر ديمومته ومناسبته لكل الأزمنة الانسانية.

المنارة للاستشارات

ومما لا شكّ فيه أنّ الخطاب القرآني خطاب متفرد، وهو في الوقت نفسه ظاهرة أسلوبية استطاعت أن تربك ثنائية الشعر والنثر، وأن تؤثر في كلّ الخطابات والأجناس، فهو يتميّز عن بقية النصوص « بفرادة تماسكه، وكيفية هذا التماسك، فهو نص يقدم نفسه بوصفه نصوصا متداخلة في إطار السورة الواحدة، كما يقدم نفسه بوصفه نصوصا متداخلة في إطار السور المتعددة» [4].

فلا مراء إذًا في جمالية الخطاب القرآني؛ تلك الجمالية التي طالما وقف العقل الانساني عاجزا نظرا لما يتمتع به من بعد مزدوج عبر التوظيف الجمالي في خدمة التواصل ليتمازجا معا في بوتقة واحدة لم يكن لأيّ خطاب أدبي أو تواصلي أن يجاريه[5]، فالخطاب القرآني مختلف عن جميع أنواع الكلام، فلا هو شعر منظوم، ولا هو نثر مسجوع، ولكنه آيات تنتهي بفواصل تعطي للقراءة جمالاً، وتحمل في طيّاتها معنًى.

ولعل من أبرز المظاهر الجمالية للخطاب القرآني ظاهرة الفاصلة القرآنية، والتي تكون أشبه باللحن الموسيقي القادر على الإيحاء، والتأثير الفني والجمالي، وطريقة مميزة من طرق التعبير.

وتجدر بنا الإشارة إلى مفهوم الجمالية في الخطاب القرآني أوّلا ليتسنّى لنا بعدها الحديث عن الفاصلة القرآنية وجماليتها.

مفهوم الجمالية:

إنّ إطلالة سريعة على " لسان العرب" **لابن منظور** نجده يقول عن مفهوم **الجمال** ما يلي :« والجمال مصدر الجميل، والفعل : جَمُلَ، وقوله عزّ وجلّ:﴿ ولكم فيها جَمَال حين تُرِيحون وحين تسرحون﴾[6]، أي بهاء وحُسْنٌ... والجمال يقع على الصور والمعاني،

المنارة للاستشارات

ومنه الحديث: إنّ الله جميل يحبّ الجمال، أي حسَن الأفعال، كامل الأوصاف»[7]، ونفهم من هذا أنّ الأصل اللغوي للجمال لا يقف عند البعد الحسّي الذي يدلّ على حُسن المنظر والبهاء، وإنّما يتجاوزه إلى البعد المعنوي المتمثّل في جمال الأفكار والأعمال، ولا يُدرَكُ هذا الجمال إلا بالبصيرة، والقرآن الكريم كما نعلم هو أيضا لا يُدرَكُ إلا بالعقل.

ومما لا شكّ فيه أنّ " **الجمالية**" كمفهوم تعدّ من المصطلحات الإشكالية التي أثارت - ولا تزال تثير- جدلا واسعا في الدراسات الأدبية الحديثة العربية والغربية، فهي وإن كانت مصطلحا حديث النشأة إلا أنّ تعريفاته تنوّعت، ومعانيه اشْتَبَكَت، واكتنفت بكثير من الالتباس، وهذا الأخير (الالتباس) الذي يكتنف الجمال راجع إلى أنّ مفهوم الجمال مفهوم نسبيّ، إذ لا يوجد شيء جميل في ذاته يمكّن كلّ انسان من الاعتقاد بأنه جميل، فالأشياء تعدّ جميلة أو غير جميلة طبقا لتقدير كلّ انسان لها، ولقوّة تأثيرها في نفسيته[8].

ويعتبر تعريف **هربرت ريد** من أهم التعريفات التي ظهرت في الجمال، والذي يستند على أساس مادي حسّي مفاده أنّ :« أنّ الجمال هو وحدة العلاقات الشكلية بين الأشياء التي تدركها حواسنا»[9]، بمعنى تناسب وتوافق الأشياء الحسّية، أما الفيلسوف **جون ديوي** يرى أنّ الجمال عنده هو: « فعل الإدراك والتذوق للعمل الفني»[10]، أي أنّ الجمال يكمن في التأمّل العقلي الذي يشعرنا بقيمة العمل الفني.

ومن المفكرين العرب الذين تحدّثوا عن الجمال نذكر **أبو حامد الغزالي** الذي قال: « الجمال ينقسم إلى جمال الصورة الظاهرة المُدرَكة بعين الرأس، وإلى جمال الصورة الباطنة المدرَكة بعين القلب، ونور البصيرة، والجمال الأوّل يدركه الصبيان والحيوان، أمّا الجمال الثاني يختصّ بإدراكه أرباب العقول ولا يشاركهم في إدراكه مَنْ لم يعلم إلاّ ظاهرا

المنارة للاستشارات

من الحياة الدنيا»[11] ، فالغزالي هنا قسّم الجمال إلى: جمال حسّي يدرك بالحواس، وجمال باطني يُدْرَكُ بالقلب والذي عبّر عنه بالبصيرة، وقال بأنّ أرباب العقول من يدرك هذا الجمال فقط.

ومهما يكن من أمر فإنّ الجمالية نظرية أدبية استطاعت أن تشغل مساحة واسعة في النقد الأدبي الحديث، بما طرحته من قيم إبداعية، استطاع المبدع بواسطتها التحكم في انتاج نصه، والسيطرة على إبراز هويته الجمالية، ومنحه العلامة الأدبية.

وانطلاقا مما سبق الحديث فإنّنا نجد الجمال في كل المحسوسات التي نراها، ونلمسها، وندركها بحواسنا، كما نجده في غير المحسوسات، ويمكننا إدراكه بالعقل، فالقرآن هو معجزة إلهية غير محسوسة، وإنّ إدراك هذه المعجزة لا يتأتى لأيّ أحد من العالمين إلاّ بالعقل فقط؛ ذلك أنّ الخطاب القرآني اختص دون غيره من النصوص بخصائص جمالية معجزة سواء في شكله أو مضمونه، وتتمثّل هذه الخصائص على حدّ قول أحد الباحثين في « قوّة البيان وسحره، والانسجام اللفظي والتماسك النصي، والإيقاعية التي تحددها دقة التوزيع الموسيقي بين الحروف والكلمات والتراكيب...مما جعل النفوس تهتز لسماعه، وتدهش لتركيبه، وتنتشي بقوة تأثيره»[12] ، وهذا يعني أنّ جمالية القرآن تكون في شكله ومضمونه، وفي اتساقه وانسجامه وتأثيره على المتلقين، وجذب أسماعهم وأبصارهم إليه إلى طريق الهداية إلى الطريق المستقيم.

مفهوم الفاصلة القرآنية:

المنارة للاستشارات

مما لاشك فيه أنّ تسمية الفواصل بهذا الاسم مأخوذة من القرآن نفسه، فقد جاءت في القرآن الكريم آيات كثيرة تحمل إشارة إلى هذه التسمية، نذكر من بينها قوله تعالى:﴿ كتاب أُحْكِمَتْ آياته ثُمَّ فُصِّلَتْ من لدن حكيم خبير﴾ [سورة هود،آية 1]، وقوله أيضا:﴿ كتاب فُصِّلَتْ أياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون﴾ [فصلت 3].

ولقد سمّى العلماء أواخر الآيات فواصل تمييزا للقرآن عن غيره من أنواع الكلام، ولقد نقل السيوطي عن الجاحظ حيث قال:« سمّى الله كتابه اسما مخالفا لما سمى العرب كلامهم على الجمل والتفصيل: سمى جملته فرآنا كما سموا ديوانا، وبعضه سورة كقصيدة، وبعضه آية كالبيت، وآخرها فاصلة كالقافية»[13].

تعددت تعريفات الفاصلة بين الباحثين، نذكر من بينها:

عرّفها الباقلاني بقوله:« حروف متشاكلة في المقاطع، يقع بها إفهام المعاني»[14] ، وهذا يعني أنّ الفاصلة القرآنية تمتلك وجهين لعملة واحدة، إذ أنها ترد وهي « تحمل شحنتين في آن واحد، شحنة من الوقع الموسيقي، وشحنة من المعنى المتمم للآية» [15]، أما الإمام الزركشي فيرى أنّ الفاصلة القرآنية هي « آخر كلمة في الآية كقافية الشعر وقرينة السجع»[16]، ونفس الرأي نجده عند ابن منظور في لسان العرب حيث قال:« أواخر الآيات في كتاب الله فواصل، بمنزلة قوافي الشعر، جلّ كتاب الله عزّ وجل واحدتها فاصلة»[17]، أما أحمد بدوي فيعرّف الفاصلة القرآنية بأنّها: « تلك الكلمة التي تختم بها الآية من القرآن»[18]، و هي: « تلك النهاية التي تذيّل الآيات القرآنية»[19]، و« الفاصلة هي كلمة آخر الآية كقافية الشعر وسجعة النثر، والتفصيل توافق أواخر الآي في حروف الروي، أوفي الوزن مما يقتضيه المعنى وتستريح إليه النفوس»[20].

المنارة للاستشارات

من خلال هذه التعاريف نستنتج أنّ العلماء يتفقون على أنّ الفاصلة هي آخر كلمة في الآية، وهي بمثابة القافية في الشعر، والسجع في النثر.

إنّ أفضل وجه وأدق لتحديد الفاصلة هو وجه يتناسب مع واقع الأسلوب القرآني، وتراكيب آياته، ولقد تمّ تقسيمها باعتبار الصوت والدلالة إلى نوعين

- **باعتبار الصوت:** إنّ الفاصلة هي آخر كلمة في الآية، وهي حاملة للصوت المشابه الذي يحدث التسجيع إن وُجِدَ، فالفاصلة بهذا الاعتبار تسمى كلمة الفاصلة[21].
- **باعتبار الدلالة:** نجد جملة الفاصلة، وفيها تكون كلمة الفاصلة جزءا من تركيب جملة مستقلة في نهاية الآية، وهي جمل تأتي للتعقيب، أو لتقرير مضمون الآية غالبا، وهذه الجملة المستقلة التركيب يقع فيها التصرف النحوي، والتنوع لبناء الفاصلة[22]، بمعنى أنّ الفاصلة في حالة النصب تستدعي أن يكون تركيب الجملة النحوي منصوبا مثل:﴿ وكان الله غفورا رحيما﴾ [النساء100]، وإن كانت الفاصلة في حالة الرفع استدعت أن يكون تركيب الجملة النحوي بالرفع مثل:﴿ والله غفور رحيم﴾ [المزمل 20].

ومن المعلوم أنّ السلف الصالح أطلق على نهايات الآيات القرآنية تسمية(رؤوس الآيات) تمييزا لها عن مصطلحات الشعر والنثر، ففي الشعر نقول صدر البيت وعجزه، وفي النثر نقول بداية الجملة ونهايتها، وبداية الآية كنهايتها عند السلف الصالح: « رأس، أي مستوى من الارتفاع والارتقاء، لا ينتهي ولا يهبط أبدا، والوقف عند الرأس يشعر بأنّ آيات القرآن قمم يرقى القارئ إليها، وكلما مضى في القراءة ازداد رقيا، فهو صاعد أبدا»[23]، لم تكن تسمية رؤوس الآي فواصل عبثا، حيث أشار الزركشي إلى ذلك في قوله: « لأنّ الكلامان

المنارة للاستشارات

ينفصلان عنده، وذلك أنّ آخر الآية فصل بينها وبين ما بعدها»[24]، ويُفهَم من هذا أنّه يربط الفواصل بالوَقْفِ، والوقف كما هو معروف مرتبط عادة برؤوس الآيات.

أهمية الفاصلة القرآنية ووظيفتها:

ينشأ **الجمال الصوتي** والموسيقي للفاصلة عن التناغم اللفظي، والتناسق بين الحروف، والمقاطع للفاصلة الواحدة، حتى أنّنا لنشعر كأنّ هندسة خفية بين أصوات الحروف وأجراسها، وبين المعاني والدلالات التي يوحيها الخطاب القرآني، ومن المعلوم أنّ لهذه الفواصل قدرات فنية قادرة على بث نغمات نفسية، ومعنوية، وايقاعا يمنح الانسان طمأنينة باعثة على شعور نفسي بالارتياح[25]، ولا شكّ أنّ المقصود **بالايقاعية القرآنية** تلك الفاعلية الجمالية، والتي من شأنها: « تحديد البنية الشكلية للسورة من خلال مستواها الخارجي المجسّد في الفواصل، فهو ليس مجرد شكل يجاري السورة في جُمَلِها، بل هو تنظيم متوالٍ لعناصر متغيّرة كيفا في خطٍ واحد بصرف النظر عن اختلافها الصوتي»[26]، ومعنى هذا أنّ للفاصلة وظيفة إيقاعية، وفي هذا الصدد يقول فضل عباس:« للفاصلة القرآنية وظيفتان: الوظيفة الرئيسية معنوية، يحتّمها السياق، ووظيفة أخرى لفظية تتصل بالجمال والإيقاع »[27]، وفي السياق نفسه يذهب فاضل صلاح السامرائي إلى القول بأنّه: « لا يراد بالفاصلة القرآنية مراعاة الحروف، وإنما يراد المعنى قبل ذلك، ويلتقي الحرف بالمشابهة اللفظية مع المعنى، وأحيانا لا يراعي القرآن الكريم الفاصلة، بل قد تأتي مغايرة عن غيرها، وهذا دليل على أنّ المقصود بالدرجة الأولى هو المعنى»[28].

يتضح بجلاء من خلال هذه الأقوال بأنّ الاهتمام الأولّ للفاصلة يتركّز بالدرجة الأولى على المعنى، ثمّ يليه الايقاع في الدرجة الثانية .

المنارة للاستشارات

إنّ الفواصل القرآنية لون ايقاعي ظاهر، وهي حقيقة ظاهرة تكرارية، ذات أثر صوتي خاص، فهي تأتي في موضعها تابعة للمعنى، وهو يطلبها، ولا نجد غيرها يحلّ محلها، كما هو المعتاد في كثير من سجع العرب، إذ أنّ: « سجعات القرآن نازلة في مواضعها، ملائمة لمواقعها، بريئة من التكلّف، تتبع فيها الألفاظ المعاني، فلا نقص ولا زيادة ولا تكرار لضرورة السجع»[29].

ومما لا شكّ فيه أنّ وظيفة الفاصلة القرآنية تتجلى أيضا في كسر ثبات الإيقاع ورتابته؛ إذ تتغاير إيقاعاتها، وتتموج طولا وتوسطا وقِصرا، وتتصاعد درجاتها النغمية في تباين يكسر الايقاع ورتابته[30]، وهذا يبعث على شحذ أذهان المتلقين، وينأى بهم بعيدا عن الملل والسأم، وهذا إن دلّ على شيء إنّما يدلّ على أنّ « الكلام إذا استمر على جرس واحد وإيقاع واحد لم يسلم من التكلف وإثارة الملل في النفوس»[31]، ومن هنا نكشف بأنّ للفاصلة وظيفة بنائية؛ إذْ أنّها تُقوي الدلالة، وتُحسّن المعنى، كما أنّها تثري الخطاب القرآني بدلالات أخرى تنبعث من الكلمة وإيحاءاتها، فهي زينة الكلام المنظوم، ولا شكّ أنّ بها يتبيّن المنظوم من المنثور.

تجدر الإشارة إلى أنّ الفاصلة تعطي للقارئ فسحة كبيرة من الراحة، وهذا لينتقل إلى آية أخرى، وتعتبر هذه الميزة والخاصية إحدى فوائد الفاصلة، هذا بالإضافة إلى الغرض المعنوي الدقيق الذي يُحَتِّمه سياق الكلام، وتقتضيه الحكمة لكل فاصلة في القرآن، هذا علاوة على الغرض اللفظي الذي تحققه، وبهذا فهي تخدم اللفظ والمعنى معا، دون أن تخل بأيٍّ منهما، والأهم من ذلك هو إراحة النفس مع الإيقاع الملائم، والمعنى السليم، بلا أيّ خلل مفتعل كما يفعل الشعراء في القافية.

المنارة للاستشارات

ويذهب الطاهر بن عاشور إلى القول بأنّ : « الفواصل القرآنية من جملة المقصود من الإعجاز، لأنها ترجع إلى محسنات الكلام، وهي من جانب فصاحة الكلام، فمن الغرض البلاغي الوقوف عند الفواصل لتقع في السمع، فتتأثر نفوس السامعين بمحاسن ذلك التماثل، كما نتأثر بالقوافي في الشعر وبالأسجاع في الكلام المسجوع»[32]، من هنا يمكن القول بأنّ الفاصلة في القرآن أضفت ميزة عن غيره من الفنون الأخرى كالشعر والنثر، إذ لا يجوز تسمية الفاصلة بالقافية بإجماع العلماء، لأنّ الله سبحانه جلّ في علاه كما قال صاحب الاتقان: « لما سَلَبَ عن القرآن اسم الشعر وَجَبَ سَلْبُ القافية عنه أيضا»[33].

يتضح بجلاء دور الفاصلة وأهميتها في بيان الإعجاز القرآني، وذلك بتنوع استعمالاتها، إذ لو حُذِفَت لاختلّ المعنى في الآية، ولو سُكِتَ عنها لاستطاع القارئ أن يختمه بها انسياقا مع الطبع الرفيع والذوق السليم، وفي هذا الصدد يقول الزركشي: « تقع الفاصلة عند الاستراحة في الخطاب لتحسين الكلام بها، وهي الطريقة التي يباين القرآن بها سائر الكلام، وتسمى فواصل،لأنه ينفصل عندها الكلامان»[34] فتبرز أهمية الفاصلة عند الزركشي في تحسين الكلام، وايصال الخطاب إلى ذهن السامع دون تكلفة أو عناء، وهذا ما يميّز القرآن الكريم عن سائر كلام البشر.

إنّ المتأمل لفواصل القرآن يجد أنّها جاءت متآلفة تمام التآلف مع آياتها، مؤدية دورها في إتمام المعنى، وإيصاله على نحو بديع معجز، حتى لو تكلف متكلّف أن يستبدل الفاصلة بغيرها ما استطاع، وما وجد غيرها يؤدي المعنى والإيقاع معا، فتأتي الألفاظ في السياق القرآني بما يوائم فواصل الآيات، وينسجم معها، حتى وإن كانت اللفظة غريبة على الأسماع كلفظة (ضيزى) الواردة في القرآن الكريم في سورة النجم في قوله تعالى:﴿ أ لكم

المنارة للاستشارات

الذكر وله الأنثى تلك إذاً قسمة ضيزى﴾ [النجم 21-22] إنّ المتأمل لجرس اللفظة يجده ملائما كلّ الملاءمة لسياق السورة التي تنتهي فواصلها بالألف المقصورة ولو جيء بلفظة أخرى تناظرها المعنى كلفظة جائرة، أو ظالمة، ما وفت حقها من أداء المعنى[35]، وهذا إن دلّ على شيء إنّما يدلّ على تفرّد الخطاب القرآني، إذ ليس فيه تركيب ولا لفظ ولا صوت إلّا وقد وُضِعَ الموضع اللائق به، بحيث لو غُيِّرَ أو بُدِّلَ لاختلّ المعنى، واضطرب البناء.

إنّ القرآن الكريم يختار الفاصلة بدقة عجيبة، تدل على إعجاز بياني، فهي من جهة الدلالة تتوافق مع مضمون الآية، ومن جهة الصوت تتوافق مع الايقاع العام للآيات السابقة واللاحقة، فهي تقوي الدلالة، وتحسّن المعنى، وتثري الخطاب القرآني بدلالات أخرى تنبعث من الكلمة وإيحاءاتها، فهي إحدى وسائل التذكر والعون على الحفظ، كما أنها تعطي نغما صوتيا محببا إلى النفوس والأسماع [36]، وإنّ كلّ آية من آيات الذكر الحكيم تنتهي بفاصلة وُزِّعَت بترتيب ربّاني، أكسبت القرآن سحرا عذبا، وإيقاعا سلسا على القلوب قبل أن يقع على المسامع.

أقسام الفواصل: إنّ أهم سمات الاستخدام القرآني للفواصل ما يلي:

أولاً: الخروج على رتابة الإيقاع (كسر الإيقاع):

مما لاشك فيه أنّ الخطاب القرآني يأتي بفواصل متوسطة الطول، ويتبعها بفواصل قصيرة، ثم طويلة، ثم يعود إلى القصيرة أو المتوسطة الطول، في سلسلة إيقاعية تطرب لها الأذن، ويلين لها القلب ويكمن سرّ هذا التنوع في رغبة التعبير القرآني في كسر رتابة الإيقاع، الذي ينتج من تكرار قالب صوتي تكرارا زائدا، مما قد يبعث السآمة والملل في نفس السامع أو القارئ، حين تتعوّد الأذن على نمط مألوف من الإيقاع الموسيقي فتقلّ متعة النفس به، فحين يلجأ القرآن إلى كسر هذه الرتابة يثري التعبير بأنغام موسيقية

المنارة للاستشارات

متنوعة تنحدر فيها موجات النغم، وتتنوع أصداؤه، تتصاعد درجاته، والملاحظ أنه يلجأ في ذلك إلى وسيلتين[37]:

- إحداهما المراوحة بين القرائن في الكم الموسيقي، فنجده يأتي بالفواصل المتوسطة الطول، ويتبعها بالفواصل القصيرة، ثم بالطويلة، ثم يعود إلى القصيرة أو المتوسطة وهكذا، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ألم نجعل الأرض مهادًا، والجبال أوتادًا، وخلقناكم أزواجًا، وجعلنا نومكم سباتًا، وجعلنا الليل لباسًا، وجعلنا النهار معاشًا، وبنينا فوقكم سبعا شداداً، وجعلنا سراجًا وهّاجًا، وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجّاجًا، لنخرج به حبا ونباتًا، وجنات ألفافًا﴾ [النبأ 6-16].
- الثانية: التصاعد النغمي: ونعني به البدء بالفواصل القصيرة، وإتباعها بفواصل أطول، فأطول ومن ذلك قوله تعالى:﴿ والعصر، إنّ الانسان لفي خسرٍ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحقّ وتواصوا بالصّبرِ﴾ [العصر 1-3].

يتضح من هذا أنّ الفاصلة القرآنية ليست على وتيرة واحدة، كما هو الحال في كلٍّ من السجع والقافية، فهي لا تلتزم شيئًا من ذلك ، حيث تجري في عدد من آيات السورة على نمط، ثم تتحول عنه إلى نمط آخر، فتنوعها وتغايرها يكون تبعا لسياق الآيات ونظم السورة.

ثانياً: التوازي:

إنّ التوازي بمفهومه البلاغي هو:« اتفاق أواخر القرائن في الوزن والرويّ»[38]، ومن ثمة فإنّ الفواصل المتوازية تجمع بين الاتفاق في الحرف الأخير وبين الاتفاق في البنية المقطعية، ونجد التوازي مثلا في قوله تعالى:﴿ فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر﴾ [الضحى 9-

المنارة للاستشارات

10]، كما نجده أيضًا في قوله جلّ في عُلاه:﴿ والسماء ذات الرجع ، والأرض ذات الصدع﴾ [الطارق 11-12].

ثالثاً: التوازن:

المقصود بالتوازن هو: « أن يراعى في مقاطع الكلام الوزن فقط»[39]، وهذا يعني أنّ توازن الفواصل يقصد به اتفاقها في البنية المقطعية دون الحرف الأخير، ومثالنا على ذلك هو قوله تعالى:﴿ ونمارق مصفوفة، وزرابي مبثوثة﴾ [الغاشية 15-16]، وأيضًا قوله تعالى:﴿ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث، وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾ [القارعة 4-5].

رابعا: التطريف: يقصد بالتطريف في اصطلاح البلاغيين:« ما اتفقت فيه الأعجاز في الروي دون الوزن»[40]، ومعنى هذا أنّ التطريف في الفواصل هو اتفاقها في الحرف الأخير دون البنية المقطعية، فهو عكس التوازن، ومن ذلك نجد قوله تعالى:﴿ الذي جمع مالًا وعدّده، يحسب أنّ ماله أخلده﴾ [الهمزة 2-3] وفي قوله تعالى أيضًا:﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها، وأخرجت الأرض أثقالها﴾ [الزلزلة 1-2].

خامسًا: الترسّل: نعني بالترسّل « عدم التقيّد بوزن ولا رويّ في الفواصل»[41]، فالترسّل في الفواصل هو ما اتفقت مقاطعه، وتطابقت تطابقًا تامًا، ومن ذلك لدينا قوله تعالى:﴿ وجعلنا نومكم سباتًا، وجعلنا الليل لباسا، وجعلنا النهار معاشا﴾ [النبأ 9-11].

الملحظ الصوتي لفواصل الخطاب القرآني:

يقوم الملحظ الصوتي في فواصل الآيات القرآنية على مظاهر عدّة نذكر منها:

المنارة للاستشارات

- **إلحاق الألف (زيادة حرف):** ورد في القرآن فواصل تضاف فيها ألف، وذلك عناية للبعد الصوتي ونسق البيان وهذا من أجل التأثير في النفس، ومن مظاهر تلك الزيادة: نجد في قوله سبحانه وتعالى:﴿ وأطعنا الرسولا وأضلونا السبيلا﴾ [الأحزاب 66-67].
- **حذف حرف**: نحو قوله تعالى:﴿ والليل إذا يسر﴾ [الفجر4]، فقد حذفت الياء من الفعل المضارع (يسري) مراعاة لفواصل الآي، وحذف ياء المنقوص المعرّف نحو:﴿ الكبير المتعال﴾ (الرعد9)، وحذف ياء الإضافة نحو:﴿ فكيف كان عقاب﴾ (الرعد32).
- **التقديم والتأخير:** نحو قوله تعالى: ﴿ فأوجس في نفسه خيفة موسى﴾ [طه 67] ، لأنّ أصل الكلام أن يتصل الفعل بفاعله، ويؤخر المفعول به، لكن ما حدث هنا هو تأخير الفاعل وهو موسى وهذا من أجل رعاية الفاصلة.
- **ختام كلمة الفاصلة أو المقطع الأخير بمدٍ أو مدٍ يليه صامت:**

إنّ أكثر الأصوات ترددا في إيقاع الفواصل أصوات المد واللين، وصوتا الغنة (النون والميم)، وعنها يقول مصطفى صادق الرافعي:« وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلا صور تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى، وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقا عجيبا، يلائم نوع الصوت، والوجه الذي يساق عليه، بما ليس وراءه في العجب مذهب، وتراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم، وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها، أو بالمد وهو كذلك طبيعي في القرار»[42] ، وفي هذا القول إشارة إلى أنّ الفاصلة تفصل بين آيات السورة الواحدة بهذا النغم الموسيقي، وبذلك الإيقاع الذي يورثها أهمية محمودة في السورة القرآنية.

المنارة للاستشارات

لقد لوحظ من خلال التحليل الصوتي للفاصلة القرآنية أنه كثر في القرآن الكريم ختم كلمة المقطع من الفاصلة بحروف المدّ واللّين التي قد تأتي مفردة في نهاية كلمة الفاصلة، وقد يُلْحَقُ بها حرف كالنون أو الميم وغيره من الحروف، مثل (سعيرا، رحيما، قريبا، تبديلا، تقتيلا)، وسبب هذا كما قال الزركشي:« وهذا لوجود التمكين مع التطريب»[43]، وفيما يلي نماذج من الفاصلة القرآنية الواردة في نهايتها حروف المد واللين وإلحاق النون أو حرف آخر:

- ورود الواو والنون في نهاية الفاصلة (يعلمون، ينفقون، يسبحون، يتقون، توعدون)
- ورود الياء والنون في نهاية الفاصلة القرآنية مثل (العالمين ، نستعين، المبين، المستبين)
- ورود الواو مع صامت آخر في نهاية الفاصلة القرآنية مثل (غفور، ودود، رؤوف،الصدور)
- ورود الياء مع صامت آخر في نهاية الفاصلة القرآنية، مثل:(قدير، سميع، عليم، العتيق حرير).

خلاصة:

لقد جاء القرآن فيضا جماليا، يجسّد إعجازا بيانيا في نظمه، منسجما في حركاته وسكناته متماسكا في مقاطعه وفواصله، إذ أنه جمع بين جمال الايقاع وروعة التصوير، ودقة التعبير، وقوة نظمه وانسجامه، وهذا هو سرّ خلوده على وجه الأرض ﴿ إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون﴾

المنارة للاستشارات

ومما سبق نخلص إلى أنّ الفاصلة ذات دلالة محددة مرتبطة بمضمون آيتها من جهة تأدية دورها في الإيقاع الجميل الذي هو من السمات الظاهرة للغة القرآن الكريم، وهي من أروع صور التحدي التي تميّز بها القرآن، حيث تكون الفاصلة شاهدة على أنها من لدن حكيم خبير.

الهوامش:

[1]- كريم حسين ناصح الخالدي، الخطاب النفسي في القرآن الكريم - دراسة دلالية- ، دار صفاء للنشر والتوزيع،ط1، الأردن،2007 ، ص16.

[2]- لطفي فكري محمد الجودي، جمالية الخطاب في النص القرآني- قراءة تحليلية في مظاهر الرؤية وآليات التكوين- مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2014 ، ص 97.

[3]- المرجع نفسه، ص 239.

[4]- المرجع نفسه، ص 100.

[5]- الإشارة الجمالية في المثل القرآني، عشتار داود محمد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005 ، ص32

[6]- سورة النحل، الآية 6.

[7]- ابن منظور، لسان العرب، تحق: عبد الله علي الكبير، محمد هاشم الشاذلي، محمد أحمد حسب الله، دار المعارف، مصر، ج1، مادة (ج م ل)، ص 685.

[8]- لطفي فكري محمد الجودي، جمالية الخطاب في النص القرآني- قراءة تحليلية في مظاهر الرؤية وآليات التكوين- المرجع السابق، ص 23، بتصرّف.

[9]- أمال حليم الصراف، علم الجمال فلسفة وفن، دار البداية، ط1، عمان الأردن، 2012، ص ص 13 - 14 .

[10]- المرجع نفسه ، ص 14.

المنارة للاستشارات

[11]- فداء حسين أبو دبسة، فلسفة الجمال عبر العصور، نقلا عن أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج2، ص 306.

- لطفي فكري محمد الجودي، المرجع السابق، ص 44. [12]

[13]- السيوطي عبد الرحمن، الاتقان في علوم القرآن، تحق: مركز الدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية السعودية، دت، ج1، ص143 .

[14]- الباقلاني، إعجاز القرآن، تحق: أحمد صقر، دار المعارف، دط، مصر،دت، ص 270.

[15]- ينظر: بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن، دار الشروق، ط1،القاهرة، 1973، ص201.

[16]- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحق: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعرفة، ط2، بيروت،1972، ج1،ص 53.

[17]- ابن منظور، لسان العرب، دار الفكر، ط1،بيروت، لبنان، 2008، مادة (ف ص ل).

[18]- أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، مطبعة الرسالة، ط3، القاهرة، 1995، ص 245.

[19]- بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن، المرجع السابق، ص 201.

[20]- محمد الحسناوي، الفاصلة في القرآن، دار عمار، ط2،عمان، 2000 ص29.

[21]- السيد خضر، فواصل الآيات القرآنية دراسة بلاغية دلالية، مكتبة الآداب، ط1،ط2،القاهرة، 2009، ص56.

[22]- نفسه، ص 57.

[23]- شملول محمد، تأملات في إعجاز الرسم القرآني وإعجاز التلاوة والبيان، موقع منتديات المنشاوي، ط2، 2009، ص89.

[24]- عمر عبد الهادي عتيق، ظواهر أسلوبية في القرآن، عالم الكتب الحديث، ط1، فلسطين، 2010، ص 325.

[25]- شارف مزاري، مستويات السرد الإعجازي في القصة القرآنية،منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001، ص40.

[26]- نفسه، ص نفسها.

[27]- فضل حسين عباس، قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، دار البشير، ط1،عمان، 1988، ص 227.

[28]- فاضل صالح السامرائي، التعبير القرآني، دار عمار، ط4،عمان،2006، ص 145.

[29]- السيد خضر، فواصل الآيات القرآنية دراسة بلاغية دلالية، المرجع السابق، ص 51.

المنارة للاستشارات

[30]- بثينة خضر محمد سيد أحمد، العدول في القرآن وفق نظرية التلقي ،أطروحة دكتوراه، جامعة البصرة،2005،ص70.

[31]- كاصد ياسر الزبيدي، الجرس والايقاع في تعبير القرآن، مجلة آداب الرافدين، جامعة الموصل، ع9، ص353.

[32]- محمد الطاهر ابن عاشور: التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، دط، تونس،1997 ، ص76.

[33]- السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، تحق: محمد ابو الفضل ابراهيم، دط، القاهرة، 1975، ج3،ص13.

[34] - الزركشي، البرهان في علوم القرآن، المرجع السابق، ص 54.

[35]- جبير صالح حمادي، التصوير الفني في القرآن دراسة تحليلية، مؤسسة المختار، ط1،القاهرة، 2007، ص173.

[36]- السيد خضر، فواصل الآيات القرآنية دراسة بلاغية دلالية ، ص 54 بتصرف.

[37]- كمال الدين عبد الغني المرسي، فواصل الآيات القرآنية، المكتب الجامعي الحديث، ط1،مصر، 1999،ص ص 184- 185، بتصرف.

[38]- محمود أحمد نحلة، دراسات قرآنية في جزء عم ، دار العلوم العربية، ط1، لبنان، 1988، ص182.

[39]- صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن،ط 1، دار العلم للملايين، بيروت،1977، ص 183.

[40]- محمود أحمد نحلة، دراسات قرآنية في جزء عم، ص 185.

[41]- كمال الدين عبد الغني المرسي، فواصل الآيات القرآنية، المرجع السايق، ص 193.

[42]- مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار مصر للطباعة، ط3، مصر، ص 255.

[43]- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، المرجع السابق، ص68.

المنارة للاستشارات

المنارة للاستشارات